الاستثنائية الإسرائيلية: منطق الصهيونية الهدّام

Israeli Exceptionalism: The Destabilizing Logic of Zionism

تحرير: محمد شهيد عَلَم | *Author: Mohammed Shahid Alam*

الناشر: تكوين، 2021 م | *Publisher: Takween,* 2021

مراجعة: عاصم محاميد | *Reviewed by: Asem Mahamid*

عدد الصفحات: 424 | *Pages:* 424

ينطلق الكتاب من سؤال محدّد واضح، هو: لماذا حقّقت الصهيونية في الحقبة التاريخية التي حدّدها هذا النجاح الذي لم يكن متوقّعًا في ذلك الوقت؟ يبدأ الكاتب بسرد تحليل مفصل للاستثنائية الإسرائيلية التي حقّقت عدة نجاحات في تلك الفترة؛ من حيث تجييش الدول الغربية لتبني المشروع الصهيوني، وتطويع رغبة يهود العالم في الهجرة إلى فلسطين بشكل إجباري.

قسَّم الكاتب كتابه ثلاثة أجزاء، كل جزء يضمّ عدة فصول، سنتطرق إليها تباعًا.

الجزء الأول: الاستثنائية الإسرائيلية:

يستعرض الكاتب هنا الحالة الاستثنائية للكيان الصهيوني، وكيف أوجد لنفسه أرضية تمكنه من الاتكاء عليها، وفرض طموحه بلغة القوة. تقول غولدا مائير: «قمة الأخلاقية -بالنسبة لي- هي أن للشعب اليهودي الحقّ في الوجود، وإذا لم يكن فلا أخلاق في العالم» وهنا نرى التصميم الجليّ والمترسخ في أهمية وجود هذه الدولة بالنسبة للصهاينة.

في أغسطس 1897م اقترح مؤسسو الصهيونية خطة جديدة لتحرير أمّة لم تكن موجودة في ذلك الوقت. لقد دعَوا إلى تحرير اليهود الأوروبيين وجمعهم في فلسطين لا في أوروبا. إن خطة استعمارية بلغت هذا الحد من الطموح والجرأة -بل والخيال- يجب أن يُدافَع عنها بأساطير لا تقلّ جموحًا عن طموحات الصهاينة.

يؤكد الكاتب أننا لا نعاني -في الحقيقة- قلة أو صعوبة في الحصول على السرديات التاريخية والتحليلات النفسية للصهيونية ومؤسسيها، فهذه المصادر تملأ بسهولة مكتبة كبيرة! إنّ اهتمام هذا الكتاب يتقاطع مع هذه الأدبيات، ولكنه ينظر أيضًا إلى المسألة الصهيونية بطريقة مختلفة. نحن نركز على أصل الفكرة الصهيونية وطموحها الأساسي

DOI:10.36360/1560-013-001-012

-الذي يمكن ملاحظتهما بوضوح منذ إطلاقها- لإنشاء دولة يهودية في الشرق الأوسط من خلال إبادة السكان الأصليين، وإذا أراد هذا الاحتلال الذي لا يعرف الرحمة أن ينجح، فعليه أن يُطلِق العِنان لمنطق هدّام مزعزِعٍ للاستقرار، ولا يمكنه أن يتقدم إلا من خلال خلقٍ الصراعات وتعزيزها بين الغرب والمجتمعات الإسلامية، ومنذ تدشينه دفع هذا المنطق الدولة اليهودية إلى تعميق هذا الصراع. لقد وُلدت الصهيونية من رحم الطموح الجامح، لكن المنطق الهدّام لهذه الفكرة هو ما عمل على تطويرها واستدامتها.

صُنِعت بعضُ أشكال الاستثنائية الإسرائيلية لتأمين الدعم الغربي لـ«إسرائيل»، وتعتمد «إسرائيل» -بشكل كبير- على الدعم العسكري والمالي والدبلوماسي من الولايات المتحدة الأمريكية حتى يومنا هذا، ونظرًا للاعتماد الكبير على الولايات المتحدة يمتلك الصهاينة مفاتيح ضغط واسع ومتعدد الطبقات؛ لضمان عدم تراجع الدعم الأمريكي لـ«إسرائيل»، حيث تعمل كتائب اللوبي الإسرائيلي -بلا كلل- من أجل تلميع صورة «إسرائيل»، وزرع الصهاينة صورة «إسرائيل» على أنّها موقع غربي محاصر في قلب الحواضر الإسلامية؛ لكسب التعاطف الغربي، كما أنهم روجوا لكونها (الديمقراطية) الوحيدة في الشرق الأوسط، فهي البلد الصغير المناضل المضطر لأن يكون في حالة دفاع دائم عن نفسه ضد الهجمات الإرهابية التي يشنّها المسلمون، وقد أسهمت هذه الصور -المزروعة بعناية- للاستثنائية الإسرائيلية في دفع الأمريكيين للتماهي مع «إسرائيل»، وعدّها فريدة من نوعها، والاعتزاز بها، ثم دعمها سياسيًّا.

الجزء الثاني: المنطق الصهيوني الهدّام

تعمّد الصهاينة -بشكل عام- الاعتقاد بأن الفلسطينيين ليسوا شعبًا، ولا لديهم ارتباط بأرضهم، وليس لهم هوية وطنية، ولا تطلعات قومية؛ ومن ثَمّ يمكننا أخذ أرضهم منهم. والمفارقة في كل هذا واضحة؛ فاليهود الذين لم يكونوا شعبًا بعد؛ لعدم امتلاكهم أرضًا يمكنهم أن يدّعوا أنها أرضهم أكّدوا أن الفلسطينيين الذين لديهم أرضهم ليسوا شعبًا! إن هذا الخداع الفجّ ليس له سوى نهاية واحدة، هي: يمكن لشعب بدون أرض أن يسرق أرض شعب آخر.

إن أفضل وصف للصهيونية هو أنها قومية «استثنائية»؛ وقد أنتجت هذه الحقيقة الفريدة تاريخًا من الصراعات العميقة بين «إسرائيل» بالتحالف مع المجتمعات الغربية وبين المجتمع الإسلامي بشكل عام. كانت القومية اليهودية حالة غريبة لكونها كانت بلا أرض؛ أي لم يكن لها وطن، فلم يكن يهود أوروبا يشكّلون أغلبية في أي منطقة يمكن أن تصبح أساسًا لدولة يهودية أو حتى السيطرة عليها، ولا نعرف حركة قومية أخرى في الذاكرة الحديثة بدأت بمثل هذا العجز: أمة بلا وطن.

ونظرًا لأن الصهيونية كانت قومية بلا وطن وبلا أمة، فقد تعيّن على من تولّوا كبرها خلق الاثنين. ولتعويض النقص الأول، تعين على الصهاينة الحصول على وطن، وفي سبيل ذلك سيضطرون إلى مصادرة الأراضي التي تخصّ شعبًا آخر. بعبارة أخرى: كانت القومية المشرّدة تقتضي بالضرورة شنّ حرب، ولكونها إقصائية فعليها الشروع في عمليات تطهير عرقي. وفي الوقت نفسه، تعيّن على الصهاينة البدء في تكوين أمة يهودية من التكتلات اليهودية

غير المتجانسة التي ستشكل حجر أساس وطنهم الجديد على الأقل. وفي هذه الحال سيتوجب عليهم خلق نواة من اليهود الذين كانوا على استعداد للاستقرار في فلسطين، وملتزمين بإنشاء البنية التحتية لمجتمع ودولة اليهود في فلسطين. وقد بقيت هذه النواة صغيرة سنوات عديدة ؛ لأن اليهود بأغلبية ساحقة - فضّلوا سلوك طريق الاندماج، أو الثورة في أوروبا على احتلال فلسطين.

استُبدِلت بالقومية العربية -ببطء- مقاومةٌ أخرى تستند إلى الجذور الإسلامية. إن هذه العودة إلى الأفكار والهياكل الأصلية للإسلام ستضع أسس مقاومة متعددة الطبقات، ستكون أوسع وأعمق وأكثر مرونة من سابقتها. إن الطموحات الاحتلالية لـ«إسرائيل» بترسيخ هيمنتها على الأراضي المركزية للعالم الإسلامي هي ضمن ظهور هذا اللون الجديد من المقاومة؛ حيث أدى التقهقر السريع الذي مُنِيت به المقاومة القومية العربية في وجه الانتصارات الإسرائيلية إلى ظهور رد فعل إسلامي أعمق؛ ونتيجة لذلك، تواجه «إسرائيل» اليوم بالتحالف مع الحكام العرب غضب العالم الإسلامي بأكمله، تلك الكتلة الكبيرة من الطاقات البشرية، العازمة على إفساد هذا التحالف. إذا تذكر المرء أن العالم الإسلامي أضحى الآن مجتمعًا عالميًّا، يتمتع بهيمنة ديموغرافية في منطقة تمتد من موريتانيا إلى ميندناو، وتضم الآن أكثر من مليار ونصف شخص، يتجاوز معدل نموهم معدل أي مجموعة أخرى؛ يمكن للمرء بسهولة- البدء في فهم الحجم النهائي لهذه المقاومة الإسلامية ضد الهيمنة الصهيونية.

لعلّه بالصدفة -على ما يبدو- وَجَد اليهود المؤيدون للصهيونية في متناول أيديهم مجموعةً غنية من الطاقات السلبية في الغرب يمكنهم تسخيرها لمشروعهم الخاص. ربّما كان تقارب مصالحهم مع مصالح معاداة السامية هو الأكثر ملاءمة، فقد كان أعداء السامية يريدون خروج اليهود من أوروبا، وهو عين ما أراده الصهاينة؛ لذا أصبحت معاداة السامية هي الوقود الأساسي للقومية اليهودية التي سعى الصهاينة إلى خلقها. بالإضافة إلى ذلك، يمكن للصهاينة حشد الدعم لمشروعهم من خلال اللعب على وتر التعصب الديني الغربي ضد المسلمين، وكذلك تحيزهم العنصري ضد العرب بوصفهم «أراذل»؛ لأنهم ليسوا بِيضًا.

الجزء الثالث: إقامة علاقة خاصّة

إذا نظرنا إلى قائمة الفاعلين السياسيين الذين كان لهم أكثر من مجرد ارتباط عابر بالمشروع الصهيوني، والذين تأثروا بهذا المشروع في وقت أو آخر- سنجد أوّلًا، الفصائل الصهيونية المختلفة، والشتات اليهودي، ولاحقًا دولة «إسرائيل». هذه الكيانات متداخلة مع تغير في درجات التداخل بينها بمرور الوقت. المجموعة الثانية من الممثلين تتكوّن من القوى الغربية وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ومن الصهاينة المسيحيين وبخاصة في الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي وحلفائه في أوروبا الشرقية. وأخيرًا، هناك ممثلون هم الضحايا المباشرون، وغير المباشرين للمشروع الصهيوني، أولئك الذين دفعوا تكاليف النجاح الصهيوني؛ إنهم يشكلون أربع دوائر متحدة المركز حول «إسرائيل» تضم: الفلسطينيين، والعرب، والشرق الأوسط، والعالم الإسلامي الأوسع. تشكل هذه المجموعات الثلاث الشخصيات الدرامية في مأساة المشروع الصهيوني التي تتكشّف لنا بمرور الوقت.

من الواضح أن عدد الفاعلين المتورطين، وتنوعهم، والقوة متعددة الطبقات التي يحتكم عليها الصهاينة وحلفاؤهم- كل ذلك يشير إلى أن الصهيونية ليست مجرد ظاهرة تاريخية عارضة، فمن جانب لدينا تلك المشاركة المباشرة للكثير والكثير من العالم الغربي، ولدينا على الجانب الآخر العالم الإسلامي الذي سيشكل سكانه قريبًا ربع سكان العالم.

يواصل الصهاينة تسويق مشروعهم الاحتلالي على أنّه ملاذ لليهود الهاربين من الاضطهاد المعادي للسامية، إلا أن هذا ليس إلا تضليلاً للتعمية عن الحقيقة. بقي اليهود الفارون من الاضطهاد في أوروبا وبأغلبية ساحقة بعيدين عن هذا «الملاذ» طالما كانت البدائل متاحة. والأدهى من ذلك، أن الصهاينة كانوا يعتمدون على دعم أعداء السامية؛ لدفع مشروعهم القومي الاحتلالي! كانوا يعوّلون على الاضطهاد الذي تقوده معاداة السامية لإرسال المستوطنين اليهود إلى فلسطين، كما كانوا يعتمدون على رغبة الأوروبيين المعادين للسامية في التخلص من اليهود لتجنيد القوى الغربية لدعم مشروعهم الاحتلالي في فلسطين. كانت الصهيونية في الأساس حركة قومية سبقت أصولها عودة ظهور معاداة السامية في أواخر القرن التاسع عشر؛ فحتى ذلك الوقت، سعى معظم اليهود إلى محاربة معاداة السامية من خلال الاندماج وحركات الاستقلال الذاتي اليهودي والثورات الاشتراكية، وعندما أُجبِروا على الهجرة، فضّلوا بأغلبية ساحقة وجهات خارِج فلسطين. تحسّنت حظوظ الصهيونية فقط عندما أغلقت معظم الدول الغربية أبوابها أمام المهاجرين اليهود. لم يعارض يهود الشتات غلق هذه الأبواب أمام الفارين اليهود في أوائل القرن العشرين؛ لأن قيادات يهود الشتات حينها تبنّت بشكل كامل الأهداف الصهيونية، ولم يكن هناك ضغط منهم لإعادة فتح هذه الأبواب قبل الستينيات.

تلقى الصهاينة منذ انطلاق حركتهم دعمًا من الشريحة البروتستانتية المهيمنة في المسيحية، التي أعاد لاهوتها استحقاق اليهود لعهدهم مع الله. ونتيجة لذلك، بدأ عدد قليل من البروتستانت في الدعوة إلى إعادة اليهود إلى فلسطين في القرن السابع عشر؛ حينها، نظر اليهود إلى هذه المقترحات بريبة شديدة، لكن منذ القرن التاسع عشر، بدأت مجموعة جديدة من المسيحيين البروتستانت في دعم عودة اليهود؛ لأنهم اعتقدوا أن هذا مقدمة ضرورية للمجيء الثاني. صار هذا التيار البروتستانتي الذي امتد احتفاؤه بالانتصارات الإسرائيلية من موطنه في بريطانيا حتى الولايات المتحدة مصدرًا مهمًّا لدعم الصهيونية في الولايات المتحدة.

تضاعف نجاح المشروع الاستعماري الصهيوني إلى حد كبير مع الضعف الذي دبّ في عرب الشرق الأوسط، فعلى عكس الجزائريين في القرن التاسع عشر أو الليبيين بين الحربين العالميتين، كان الفلسطينيون بطيئين في مقاومة الاحتلال اليهودي؛ إذ كانت أول مقاومة جادة في عام 1936، وبمجرد هزيمتهم في عام ١٩٣٩، لم يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم إلا بعد أكثر من عقدين. والأمر الذي كان له تأثير حاسم هو أن الاحتلال اليهودي لفلسطين لم يثر ردة فعل في العالم العربي والإسلامي الأكبر تتناسب مع حجم التهديد الصهيوني، فقد تميزت هذه الفترة بغياب أي جهود منسقة في سوريا أو مصر أو العراق أو شبه الجزيرة العربية؛ لمقاومة الاحتلال اليهودي قبل أن يتحول إلى تنين لا يُهزم. ولما بدأ

القوميون العرب بالتحرك كان الأوان قد فات، حيث رسّخت «إسرائيل» قدمها في المنطقة، وأصبحت على بعد خطوات من الوضع الذي سيمكّنها من تحطيمهم قبل أن يتمكنوا من بناء قوتهم.

في الأربعينيات وحتى بعد ذلك كانت صورة الولايات المتحدة حسنة جدًّا في العالم العربي، ومشهودًا لها بالنوايا الحسنة، حيث وجهت الحركات الشعبوية في العالم العربي عداءها المناهض للاستعمار ضد البريطانيين والفرنسيين، لا الأمريكيين. بالإضافة إلى ذلك، فإن السلالات العربية والبرجوازية الصغيرة، الذين كانوا يتوقعون الوصول إلى السلطة بعد رحيل الحكام الذين عيّنهم الاستعمار؛ كانوا سعداء للغاية للعمل مع محتليهم السابقين والولايات المتحدة. لم يكن لدى القوميات العربية والمحلية ضعيفة التأسيس على أي حال توجه راديكالي، ولا يتطلب الأمر سوى القليل من البصيرة لمعرفة أن إقحام «إسرائيل» في قلب الشرق الأوسط سواء كان ذلك يخدم المصالح الإستراتيجية الغربية أم لا من المؤكد أنه سيخلق تهديدات لهذه المصالح لم تكن موجودة من قبل، وبالطبع لم تكن هذه الرؤية غائبة عن واشنطن، فقد رأى المسؤولون في وزارتَي الخارجية والدفاع ذلك بوضوح، لكن صوت السياسة الرئاسية كان أعلى.

إذن، يكمن سرّ النجاح الصهيوني في الطريقة التي تغلّب بها على الخلل الرئيس في مشروعه، ألا وهو: عدم وجود وطن طبيعي لدعم مشروعه الاحتلالي، فمن خلال كسب دعم يهود الشتات الغربي، وحفزهم على استخدام ثرواتهم وفكرهم ونشاطهم للترويج للقضايا الصهيونية- نجح الصهاينة في استبدال الغرب بالوطن الطبيعي المفقود. ومع مرور الوقت قدمت كل الدول الغربية الكبرى تقريبًا (مع الاتحاد السوفيتي) مساعدات حاسمة في إنشاء «إسرائيل» وبقائها ونجاحها. والأهم من ذلك أن القوتين الغربيتين الكُبريين: بريطانيا والولايات المتحدة وضعتا قوتهما العسكرية خلف المشروع الصهيوني على الرغم من الضرر الذي ألحقه ذلك بمصالحهما الحيوية في الشرق الأوسط.

دفعت الولايات المتحدة بالفعل ثمنًا باهظًا لسياساتها المؤيدة للصهيونية منذ عام 1948. وبمرور الوقت شملت هذه التكاليف مئات المليارات من الدولارات من الدعم لـ«إسرائيل» وحلفائها العرب، واكتساب عداوة العالم العربي، وحظر نفطي، ثم شراء النفط بسعر أعلى، وصعود التطرف الإسلامي، وعدة مواجهات مع الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط. بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001، وتحت ضغط قوي من «إسرائيل» بالتعاون مع حلفائها من المحافظين الجدد شنّت الولايات المتحدة حربًا مكلفة -لكنها غير ضرورية- ضد العراق. وفي المقابل حفزت هذه الحرب الراديكاليين الإسلاميين ومنحتهم مسرحًا جديدًا يمكنهم من خلاله الاحتكاك بالولايات المتحدة. لقد مولت الولايات المتحدة هذه الحرب والحرب في أفغانستان بالاقتراض من الصين والدول العربية الغُنية بالنفط. يجب علينا أيضًا أن نضيف نتيجتين أُخريين من نتائج حرب العراق لقائمة التكاليف الإسرائيلية على الولايات المتحدة: صعود إيران، والتحدي المتزايد للهيمنة الأمريكية في أمريكا اللاتينية.

على الرغم من أن التداعيات المحلية لتلاشي دولة «إسرائيل» ستكون خطيرة، فإن الخسائر

الأكثر خطورة للولايات المتحدة ستنبع من تآكل سيطرتها على الدول الغنية بالنفط في خليج فارس، وسيكون من التهور التنبؤ بخطوط الخريطة الجديدة التي ستظهر في نهاية المطاف في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، ومهما كانت الهياكل الجديدة التي ستظهر، فمن المرجّح أن تكون هذه التحولات جذرية وعنيفة. من ناحية أخرى، سيؤدي التشظي المفروض على العالم الإسلامي إلى خلق مصالح محلية تسعى إلى الحفاظ على الوضع الراهن، وستحدث مواجهات بين هذه المصالح المحلية والحركات الإسلامية التي تسعى إلى إنشاء هياكل أكثر تكاملاً عبر العالم الإسلامي الأوسع. ستكون هذه الصراعات مزعزعة للاستقرار بشكل كبير، حيث قد تختار الهند والصين وأوروبا وروسيا جانبًا، فكل منها حريص على استبدال الولايات المتحدة. وبمجرد أن تتخفف القيود الأمريكية الإسرائيلية على المنطقة، فلن يكون من السهل تصميم قيود جديدة مصنوعة في موسكو أو بكين أو بروكسل أو نيودلهي ؛ لم يعد العالم الإسلامي اليوم كما كان عليه خلال الحرب العالمية الأولى، إنه أقل ميلاً بشكل ملحوظ للسماح للأجانب بالتخطيط لمصيره ورسم خريطة عالمه.

تمثل أطروحة الكتاب نموذجًا جديدًا وسردية مفيدة في تصحيح المعلومة التاريخية لنشأة الكيان الصهيوني الغاصب والتناقضات التي لاحقته طيلة فترة احتلاله للأراضي الفلسطينية، كما يمثّل الكتاب نموذجًا لفهم أبعاد العلاقة الغربية مع الكيان الصهيوني، ومدى تعمقه على المستويين السياسي والاجتماعي.

العلاقات التركية القطرية

في ظل التوازنات الإقليمية

محمود سمير الرنتيسي

Turkish-Qatari Relations

In light of the Regional Balances

Mahmoud Al-Rantisi

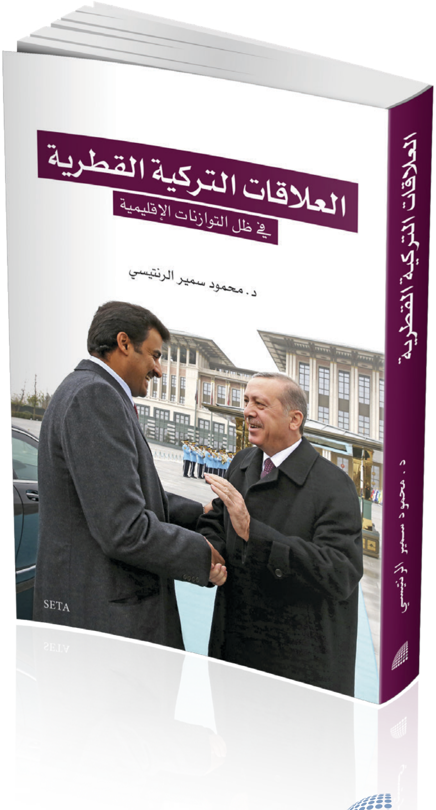

setavakfi setadc setav setavakfi
www.setav.org/en • books@setav.org
SETA

هذا هو عالمنا

مجموعة "تركواز ميديا جروب"، مجموعة إعلامية رائدة تضم عدة مؤسسات تعمل في مجال الصحافة والنشر والبث الإذاعي والتلفزيوني. تمتلك أوسع المجلات والصحف انتشاراً، وأشهر القنوات التلفزيونية، لتصبح المنصة الإعلامية الأقوى في الإعلام التركي.

والآن الفرصة متاحة أمامكم للاستفادة من هذه القوة لنشر إعلاناتكم.

TURKUVAZ
MEDIA GROUP